مناقشـــة

الأستاذ فهمي هويدي

لبحـــث

الشيخ عثمان بن محمد ابن فودي
والشيخ محمد أحمد بن عبد الله المهدي
وآثارهما

للدكتور عثمان سيد أحمد إسماعيل

الواقع أن الأخ الدكتور « عثمان » أوقعني في أكثر من إشكال ، الإشكال الأول أنه قدم لنا عرضاً تاريخياً ، ليس فيه مجال واسع للمناقشة ، الإشكال الثاني أنه أحال نصف بحثه إلى « الدكتور يوسف فضل » وبالتالي لأعرف من أناقش ، أناقشه هو أم « الدكتور يوسف فضل » ؟ الإشكال الثالث أنه تجاوز وقته فأخذ من وقتي .

ومع هذا ، فأنا أشاركه في كثير مما قاله ، وبالأخص عدم رضاه عن هذا البحث ، لأنه في الحقيقة قراءة للتاريخ . ونحن نعرف أن هناك منهجين ، إما أن نقدم عرضاً للتاريخ ، وإما أن نقدم تقييماً واستخلاصاً للدروس من هذا التاريخ . وأحسب أن « الدكتور عثمان » اختار المنهج الأول ، فقدم لنا عرضاً أكثر مما قدم لنا تقييماً ، وهذه الحقيقة المنهجية ، تسري على بعض المعالجات التي طرحت في هذه الندوة وخصوصاً فيما يتعلق بعدد من القضايا الهامة التي أكتفى في طرحها بالعرض والسرد دون التقييم واستخلاص النتائج والدروس ، فضلا عن أن بعضها قدم إلينا تاريخاً نعرفه جميعاً ، أو مايمكن أن نسميه ماهو معلوم من التاريخ بالضرورة .

فمثلا : كنت أحب أن يشير إلى موضوع المهدية بوجه أخص ، لأننا بحاجة إلى أن نعرف الحجم الحقيقي لإسهام الحركة المهدية ، سواء من حيث كونها حركة إسلامية أو حركة وطنية ، أو حركة توحيدية وخصوصاً أن « الدكتور عثمان » وصفها في آخر فقرات ذكرها أمامنا بأنها حركة توحيدية تجديدية . وهذه مسألة في الحقيقة تحتاج إلى مراجعة ، فلا بد أن نناقش المهدية ، ليس من مدخل الأبيض والأسود أعني هل هي خير كلها أو شر كلها بل نحاول أن نعرف مافيها من هنا وذاك .

لقد قرأنا فيما نسب للإمام المهدي أنه قال : أخبرني رسول الله ﷺ بكذا وكذا وكذا ، هذه وأمثالها من المسائل والممارسات والمعتقدات إذا قوّمناها بالتقييم الإسلامي الموضوعي والمحايد فسنجد فيها جنوحاً يحتاج إلى تقويم ، وأحسب أن أخي « الدكتور عثمان » يعرف

أكثر مني عن عقائد المهدية تلك التي تحتاج إلى مراجعة ، وخصوصاً ، تلك الآثار التي ترتبت على بث أفكار سادت في السودان على أيدي خلفاء المهدي ، بل في عهد المهدي عندما لجؤوا إلى تكفير الذين عارضوهم ، ثم الممارسات التي حدثت بعد وفاة المهدي على أيدي خلفائه ، وأظن أن كثيرين من اخواننا السودانيين يذكرون وقائع (فأنا أبحث عن ألفاظ مخففة بقدر الإمكان) لاتشرف الحركة المهدية على أي حال ، وأيضاً ممارسات تجاه جماهير المسلمين ، الذين لم يعبِّروا سواء عن انتمائهم أو عن ولائهم للحركة المهدية .

وإني ألفت النظر إلى هذا التردد تجاه مراجعة تجاربنا الهامة التي نعيشها ، لأن ذلك يقودنا إلى حقيقة ، وهي أن نصبح غير قادرين لا على قراءة الماضي قراءة موضوعية ومحايدة وناقدة ، ولا على قراءة الحاضر قراءة موضوعية وناقدة ، الأمر الذي يلقي كثيراً من الظلال على طريقنا وفهمنا وتقييمنا لمختلف الحركات الإسلامية المعاصرة .

ومع هذا فالبحث أو الورقة التي قدمها « الدكتور عثمان » تثير عدة أمور . النقطة الأولى هي كيفية المراجعة ، وحاجتنا الحقيقية إلى نظرة نقدية موضوعية لاانحياز فيها ولا انفعال ، تجاه الحركات الإسلامية المعاصرة ، وهذا ماأظن أننا مازلنا نفتقده إلى الآن ، فنحن نريد أن نعرف أين الصواب ؟ وأين الخطأ ؟ ولا يمكن أن نركز على الصواب فقط سواء في دراستنا لممارسات الحركة الإسلامية في الهند ، أو حركة الإخوان المسلمين ، أو الحركة المهدية الخ .. وإني اذ أطالب بدراسة الخطأ إلى جانب الصواب فذلك لأن الخطأ يعلمنا ويفيدنا وينير لنا ويفتح الطريق أمامنا لنعرف الكثير ، ونصحح الكثير من مسارنا .

القضية الثانية : حول كيفية قراءة التاريخ . بمعنى أن التاريخ ليس أحداثا منفصلة أو لا علاقة لها ببعضها ، وأتفق مع أخي « الدكتور عثمان » في قوله : إنه في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر كانت هناك عدة حركات إسلامية هي في الوقع ردود أفعال ، فمثلا كانت « الوهابية » رداً على حالة التفسخ والبدع التي ظهرت في الجزيرة العربية وكانت المهدية رد فعل أيضاً ، وكذلك حركة عثمان بن فودي كانت رد فعل ، والسنوسية كانت أيضاً ، هذه الحركات كلها كانت محاولة للرد الإسلامي على عديد من صور التفسخ سواء العقدي ، أو المقاومة الوطنية ، أو الرد على قوى الاستعمار التي غزت أطراف العالم الإسلامي .

وهناك علاقة لابد أن تستوقفنا في هذه الحركات ، بدءاً بالحركة الوهابية في الجزيرة العربية وانتهاء بالحركة المهدية والسنوسية ، ومروراً بحركة ابن فودي لأن هذه كلها كما ظهر من البحوث والمناقشات قد تماثلت تماثلا شديداً في الأفكار ، وهذا التماثل لايمكن أن يكون مجرد توارد خواطر .

ويجب أن ندرس الأثر الذي كان للحج في تلاقي الأفكار وانتشارها في العالم الإسلامي ، إن الحج جعل من المسلمين رحالة فعندما كانوا يقطعون الطريق من أعماق أفريقيا إلى الجزيرة العربية ، يمرون عبر شمال أفريقيا وعبر مصر ، وكان للقادمين من آسيا إلى الجزيرة العربية رحلة يمرون خلالها بعدد من البلاد ، هذه الرحلات جعلت من المسلمين ـــ بطبيعة الحال ، أو بالضرورة ـــ قوماً يرحلون من مكان إلى مكان ، وأتاحت فرصة كافية لتلاقح أفكار كثيرة ، وأظن أن الصدى الذي ترتب على، أو أحدثته، الحركة الوهابية، بالدرجة الأولى تمَّ أكثره عبر مواسم الحج .

ولقد وجدت في « صنعاء » كتاباً أصدره يمانيون عن الحملة الفرنسية على مصر ، وتبين منه أن المسلمين في اليمن ، لم يعرفوا بأنباء الحملة الفرنسية على مصر ، مع أنها كانت في آخر القرن الثامن عشر ، إلا عبر موسم الحج ، ولم يسمعوا عنها إلا من الحجاج القادمين ، وبذلك كان الحج فرصة حتى لنشر الأخبار إلى جانب الأفكار ، ولقد كان للحج أثر هام في الحياة الفكرية للمسلمين . وهذه مسألة تحتاج إلى رصد لمعرفة أثرها في مسار العديد من الحركات الإسلامية والأفكار التي انتشرت في العالم الإسلامي ، وتأثيرها وتأثرها ببعضها .

ثم إن الأخ « عثمان » قد اعتبر المهدية حركة تجديدية ، وهذه نقطة أخرى نرجو أن تستنير فيها بتقييم محايد وموضوعي ، لأنني أحسبه قد قدم لنا وجهاً مشرقاً ومضيئاً ومفيداً ، ولكننا سنظل بحاجة إلى أن نرى الوجه الآخر من باب الإنصاف والحيدة والمعالجة الموضوعية .

*